الفصل السابع

بين الدين والدولة

قلنا فى بداية هذا البحث إن الحركة الصهيونية قامت على استغلال خاطئ ضال لعهود الرب مع إبراهيم ، ولقد كانت هناك عهود حقًا ولكن التزمت لتنفيذها شرط عبادة الله وطاعته والحرص على أوامره والامتناع عن نواهيه ، ولم يف بنو إسرائيل بما ألزمهم الله فحقّ عليهم وعيده وانتهى أمر عشرة من أسباطهم إلى الزوال نهائيًا من صفحة التاريخ ، وبقى سبطان كان مآلهم السبى فى بابل بعد سقوط مدينتهم وتخريب هيكلهم ، وكان من الممكن أن يطويهم النسيان فى غماره كماطوى أهل السامرة لولا السبى البابلى نفسه فهو وحده صاحب الفضل فى بقائهم ، فلو أن نبوخذ نصر شتتهم كلّ مشتّت كما شتّت سرجون الثانى سكان السامرة لما قدّر لهم أن يجتمعوا فى ظروف وتحت عوامل نمت وحدتهم وألهبت شعورهم القومى ، بل وهذبت طباعهم البدوية وحضرتهم . فلم يكن الإسرائيليون قبل السبى البابلى شعبًا متحضرًا حتى ولا متحدًا فإن الثورات الداخلية كثيرًا ما شابت تلك الوحدة التى حاول القضاة والملوك والأنبياء أن يحملوهم عليها ، بل إن الشعور الدينى والعنصرى الذى ألهبته التوراة فى ظلّ السبى البابلى ظلّ خابيًا قبل ذلك ، ولم يبد أثر التوراة عليهم إلا بعد أن حضّرتهم الحياة البابلية ، فلم يكن فيهم قبل ذلك غير قلة تستطيع القراءة والكتابة ولا يذكر تاريخهم نفسه أن الأسفار الأولى من التوراة كانت تقرأ ، ولم تذكر الكتب لأوّل مرة إلا فى عهد أوشيا ، ويبدو أن التوراة لم

تضم حتى ذلك الوقت غير أسفار موسى الخمسة أو الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وإن كان لديهم على صورة ما كثير من الكتب الأخرى ألحقت بعد ذلك فى أزمنة متفرقة بالأسفار الأولى وكونت التوراة العبرانية الراهنة ومنها مثلاً ، أخبار الأيام والمزامير والأمثال .

فإذا كانت التوراة هى التى كونت الشعب الإسرائيلى فإن السبى البابلى هو الذى حملهم على الالتفاف حول التوراة وهو الذى نقلهم من شعب بدوىّ قبلىّ جاهل إلى شعب متحضّر متّحد يلهبه الشعورالعنصرى ، يستطيع أن يقرأ التوراة ويلتمس فيها مثله الدينية والعنصرية ، ولعلّ الإسرائيليين لم يدركوا من قبل هذه القوى الروحية الغامرة التى تنطوى عليها ديانة إبراهيم وتعاليم موسى ولا ذلك الإيثار الإلهى الذى كان لهم عند الرب والذى ردّدته التوراة كثيرًا حتى خلق فيهم نوعًا من التميز والاستعلاء العنصرى كانا نكبةً عليهم فى كلّ تاريخهم .

إلا أن الشعور العنصرى الذى شمل اليهود إبان السبى البابلى وكان ثمرة الغربة والتجمع حول التوراة ، كان من ناحية أخرى ثمرة التآلف الفكرى لليهود ، ذلك التآلف الفكرى الذى كان بدوره عملاً من أعمال النبى قبل أن يكون عملاً من أعمال الكاهن أو السياسى أو القضاة أو الملوك ، وكان النبى طرازًا فريدًا من الناس وجد من قبل فى إسرائيل كما نقرأ ذلك فى أسفار التوراة ، ولكن أثر النبى لم يكن ليبرز إلا فى الملمّات وعندما تتراكم المصائب على رأس بنى إسرائيل ، كان يظهر لينذر ويهدى ويشير وكان يتنبّأ وتصدق نبوءته كما تقصّ التوراة ، ويبدو أن النبىّ كان رجلاً يفوق جيله حصافةَ وبعد نظر وكان متجردًا من أطماع الكاهن وطموح الملك فكان حكمه على الأمور صائبا ، وكان تأثير الأنبياء فى الناس إبّان السبى البابلى يفوق ما كان لهم من تأثير قبل ذلك .

ولم يكن الأنبياء من طبقة واحدة بل كانوا رجالاً متباينى الأصل والمنبت ، فالنبى حزقيال مثلاً كان من الكهان وكان النبى عاموس من الرعاة يرتدى جلد الماعز إلا أنهم كانوا يتفقون فى شىء واحد هو أنهم لا يدينون بالولاء لغير الرب وأنهم يتصلون بالناس مباشرةً دون تكريس كالكهان أو إذن من ذوى السلطان ، ويقولون أن كلمة الرب قد جاءتهم ، وكانوا يتكلمون فى كل شىء ويخلطون بين الدين والسياسة ويحرضون الشعب على أعداء إسرائيل وينعون على الكهان تراخيهم ويندّدون بآثام الملوك ومعاصيهم وضلال الشعب ورذائله وينقدون سوءات المجتمع والتباين بين الأغنياء والفقراء وتشبّه الأغنياء بالأجانب مما يغضب رب إبراهيم الذى يسوطهم بعذابه جزاء ضلالهم وكفرهم .

وكانت هذه الأقوال تدوّن وتنسب إلى أصحابها وغدت بعد السبى البابلى جزءًا من التوراة العبرانية فحفظها اليهود جيلاً بعد جيل ، وكان أعظم ما خلفت من أثر فيهم أنها باعدت بين الإسرائيلى وبين الكاهن والمعبد والبلاط والملك وجعلته وجهًا لوجه أمام رب البر ، وتلك هى أهمية الأنبياء العظمى فى تاريخ بنى إسرائيل أو فى تاريخ البشرية كما يقول « ويلز » .

ولم تخل أسفار الأنبياء من إثارة البغضاء والكراهية والتميز وعدم الانصاف إلا لإسرائيل مما يذكرنا بذلك الشعور القومى الجارف الذى يلفح الأمم الناشئة بسعيره ويثير فيها ذلك التعصب العنصرى الذميم الذى غدا علمًا على إسرائيل ، ومن العسير أن نسميها قومية فيما غبر من تلك الأزمان التى لم تعرف معنى القومية فهى أقرب إلى التجمع والتحزب والتآلف القبلى منها إلى القومية السياسية التى عرفناها فى القرن التاسع عشر والتى اقتبست منها الصهيونية معالمها واتجاهاتها فى المطالبة بوطن قومى وإنشاء دولة يهودية فى أرض الميعاد .

فالقومية اليهودية إذا جاز لنا أن نسميها كذلك ، أو التآلف اليهودى على وجه أدق ليس إلا خليطًا غير متجانس من انفعالات السبى ووحى التوراة ونبوءات الأنبياء تلك النبوءات التى وصلت إلى ذروة سامية من شطحات الخيال حين تنبأ أشعياء باتحاد العالم كله فى ظلّ إله واحد ، إله إبراهيم رب البر والخير وتحت سيادة صهيون ، فهى نزعة عنصرية دينية أكثر منها نزعة قومية استقلالية ، إلا أن هذا الخليط غير المتجانس من الانفعالات التى غذتها عوامل عديدةقد استطاعت بفعل الأنبياء أن تكوّن هذا التآلف الفكرى لليهود على اختلاف أزمانهم وطوائفهم ونزعاتهم وتشتتهم فى كل صقع ، فالتميز والاستعلاء ونظرية الشعب المختار والتجمع حول التوراة وتابوت العهد والهيكل وأرض الميعاد قد نمتها أقوال الأنبياء وغذّاها السبى البابلى وقوّاها الانتقال من البداوة إلى التمدين والحضارة البابلية ، فالنبى دانيال مثلاً كان أحد الذين أمر الملك نبوخذ نصر بتعليمهم اللغة الكلدانية من بنى إسرائيل ، فأصبح النتاج الفذ لكل هذا ، تلك العنصرية الصهيونية العارمة .

فالصهيونية ليست وليدة اليوم أو بنت الأمس ولكنها تضرب فى أغوار الزمن إلى أيام السبى البابلى ولعل فى كلمات هذاالمزمور الذى دونه شاعر مجهول ما يبرز تلك الأمانى العنصرية الحادّة التى ألهبت خيال اليهود منذ القدم .

« على أنهار بابل جلسنا ، بكينا أيضا عندما تذكرنا صهيون » .
« على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لأنه هناك » .
« سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا فرحا » .
« قائلين ، رنموا لنا من ترنيمات صهيون » .
« كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة » .

« إن نسيتك يا أورشليم تنسر يميني ، ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك » .

« إن لم أفضل أورشليم على أعظم فرحي » .

« أذكر يارب لبني أدوم يوم أورشليم القائلين هدوا هدوا حتى إلى أساسها » .

« يابنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاءك الذي جازيتنا »[1] .

وأصبحت العودة إلى أورشليم رمز أمانيهم العنصرية ولا نقول القومية ، وشطح بهم الخيال فتصوروا العالم يدين لصهيون بالطاعة ولأورشليم بالولاء . وكان هذا طرازًا عجيبًا من التجمع العنصري لسيادة العالم ، فالقومية لا تكون إلا بوجود أمّة ترتبط بوطن تعيش عليه بتلك العاطفة التي نسميها الوطنية والتي تلهب الشعور القومي وتغذيه ، ولم تكن قومية إسرائيل من هذاالطراز فإنها لم تنم إلا في ظلّ الغربة والتشتت ، فلا يمكن أن يقال أنها ترتبط بوطن يعيشون فيه ، وأن هناك عاطفة تربطهم بهذا الوطن ، فالعاطفة الوحيدة التي تلهب شعورهم ليست هي العاطفة الوطنية ولكنها عاطفة الاستعلاء العنصري والحنين الديني . وأمل العودة إلى أرض لم تكن في يوم من الأيام ملكًا لهم حتى حين بلغ ملك داود وسليمان أوج اتساعه ، فهي عاطفة قامت على خيال جامح ضالٍّ يغذيه وعد إلٰهي جاوزهم إلى غيرهم ممن قاموا برسالة إبراهيم وحملوا دينه إلى العالمين .

لذلك كانت القومية التي تدعيها الصهيونية طرازًا شاذًّا من القوميات فهي لا تقوم على الحقيقة قدر ما تقوم على الخيال ، ولا تقوم على الواقع

---

(١) مزامير ١٣٧ .

قدر ما تقوم على الأمانى والأحلام ، ولا تستند إلى حقٍّ تاريخى قدر ما تستند إلى نبوءة دينية .

وهى طراز شاذٌ من القوميات لأنها تتعلق بوهم خبا منذ آلاف السنين ، اختلطت فيه المشاعر الدينية بالمشاعر العنصرية ، المشاعر التى أوحتها التوراة وغذتها فكرة الشعب المختار .

ولكن إذا كانت التوراة هى التى صنعت اليهود فإن اليهود هم الذين صنعوا التوراة قبل أن تصنعهم ، فالأسفار الأولى للتوراة التى ضمت التشريعات الموسوية لم تكن لتوحى لليهود بتلك المشاعر الدينية والعنصرية الحادّة ولكنها أسفار الأنبياء هى التى أوحت بتلك المشاعر الدينية والعنصرية وقوّتها على الزمن وخلقت هذا التآلف الفكرى الذى عرف عن اليهود كما لم يعرف عن أىّ شعب آخر فى العالم القديم أو الحديث بالرغم من تفرقهم وتشتتهم طوال الزمن ، وهذا التآلف الفكرى هو الذى يدين له اليهود بالصمود والبقاء ، فاليهودى فى أىّ مكان أو زمان لا يتغيّر وهو نفسه فى كل زمان ومكان .

وهذا التآلف الفكرى ميراث قديم يقوم على معتقدات ثابتة ومثل لا تتغير من التوراة وأقوال الأنبياء وبمرور الزمن وتوالى المصائب على رأس اليهود لم تعد التوراة ولم تعد أقوال الأنبياء تلهب عنصرية إسرائيل أو تزكى هذا العداء الجارف الذى يجب أن يحمله الإسرائيلى فى قلبه لغيره من البشر ولا سيما الأمم المسيحية فابتدع حاخاماتهم وحكماؤهم ما عرف بالتلمود وهو مجموعة وصايا ومبادئ سياسية فى غلالة دينية تبسط لبنى إسرائيل مكانتهم فى هذا العالم وعلاقتهم بغيرهم من الأمم وسياستهم التى تجب عليهم حيال بعضهم البعض وحيال غيرهم من الأمم والشعوب حتى تتم لهم السيطرة على العالم وسيادته وتحقيق مكانة إسرائيل التى هى خليقة بها كما يقولون ، والتى اختارهم الرب لها وهم شعبه المختار الذى يبكى

لأجلهم وينوح ندمًا على ما جلبه عليهم من مصائب . وبتقدم الزمن ابتدع الحاخامات ما سموه « بروتوكولات صهيون » وهى خطة سياسية مفصّلة للسيادة على العالم بطريق المؤامرة والتسلط وإثارة العداوات والإحن بين الدول والعمل على إشعال الحروب والتمكين لأتباعهم وعملائهم من الحكام حتى يحققوا لهم سياستهم ويكونوا لهم درعًا ووقاءً من كلّ شر .

ويجتمع اليهود حول هذا الخليط المتنافر من أسفار التوراة وأحكام التلمود وقواعد البروتوكولات فى نوع من التآلف الفكرى يثير الدهشة والذهول ، إلّا أن هذا التآلف الفكرى وهو جوهر العقيدة الصهيونية ، لم يبرز فجأةً ولم ينم طفرة ، بل سار فى خطى وئيدة مطّردة حتى اكتمل فى عقيدة الصهيونية ومبادئها الحادة . ففى بداية الأمر كان الحنين إلى أورشليم هو الذى يلهب خيال اليهود بالخلاص من السبى البابلى . ووجدوا فى المعبد عوضًا عن الهيكل مكاناً للتجمع والتآلف ، كما رأوا فى الصلاة غناءً عن المذابح والقرابين ، وظلّ المعبد بعد ذلك مركز التجمع لليهود ، ويمكن أن يقام المعبد فى أىّ مكان بل وأقيم فى البيوت حين كان الضغط يشتد بهم ، وغدت هذه السرية التى يمارس اليهود فى ظلّها طقوسهم وعباداتهم سمةً عليهم بعد ذلك فى اجتماعاتهم ومؤتمراتهم ، ومن هذه السرية نبعث هيئات ومحافل ومذاهب عديدة تنتشر فى بقاع العالم أجمع وأحيطت بنفس السرية التى أحاط بها اليهود طقوسهم وعباداتهم مما حمل الناس على نسبتها إليهم ، وفى هذا الجوّ من السرية الخالصة عرفت المؤامرة اليهودية طريقها إلى العمل ، وبلغت المؤامرة اليهودية من دقّتها أنها سخرت كثيرًا من أعدائها لخدمتها دون أن يعرفوا أنهم مسخرين لخدمة من يكرهون ، وتتّسم المؤامرة اليهودية بالدقة والأناة فالزمن ليس له فى سبيل حبكتها والنتائج التى تعمل لها حساب .

وبرزت المؤامرة اليهودية فى كثير من الانقلابات والثورات التاريخية التى تخدم أغراضهم وسياستهم والتاريخ حافل بأخبارها ، وكمثل لها الانقلاب الذى قامت به جماعة الاتحاد والترقى فى تركيا وعجل بسقوط الدولة العثمانية وانهيارها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، فقد عاد عليهم سقوطها وتقسيم أملاكها بوعد بلفور والوطن القومى لإسرائيل . وتمتدّ المؤامرة اليهودية فى الوقت الحاضر إلى كثير من البلاد العربية وتقوم على إشاعة الفرقة فى صفوف العرب حتى تواتيها الفرصة لإنشاء دولة إسرائيل الكبرى ، ترتدى أحيانًا ثوب القومية الزائف وأحيانًا غلالة المبادئ الاشتراكية المضلّلة .

وقد علت مكانة المعبد والحاخام عند اليهود حتى طغت على مكانة الهيكل والكاهن منذ أيام السبى البابلى ، فلما عاد اليهود إلى فلسطين من سبى بابل عادوا شيعًا لا تدين جميعًا لكهان أورشليم بالتبعية والولاء ، منها الصدوقيون الذين يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويأخذون بالتوراة القديمة التى تضم الأسفار الموسوية الخمسة ويرفضون ما عداها من الأقوال والمأثورات التى ضمتها الأسفار التالية .

والفريسيون وكانوا ينكرون على الكهان استئثارهم بالشعائر والطقوس فأقاموها فى البيوت بغير حاجة إلى رسامة أو تكريس كهنوتى وجعلوا من كلّ بيت هيكلاً مقدس المراسم ، وكان ذلك نواة المعبد الذى انتشر بتفرق اليهود وتشتتهم ، وأخذوا على الصدوقيين إنكارهم للبعث والحياة الروحية ، لذلك كان انتظارهم للمسيح المخلّص غير مقيد بصولة السيادة وصولجان الملك كما يرى الصدوقيون بل هو الخلاص فى عالم الروح . ويقال أن معلمى السيد المسيح فى صباه كانوا من الفريسيين .

وثمة طائفة ثالثة هى طائفة الآسيين كما عرفوا فى عصر الميلاد ، وكانوا

فى بنى إسرائيل كثرة تجمعها صرامة العقيدة وإحكام الخطة ، ولكنها تستقل عن الطوائف الأخرى بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها ، وأوشكت أن تستقل عن الهيكل فى علاقتها بالدين والحكم ، ولم يكن يربطها بالهيكل إلّا تقريب القرابين وإن كانوا يقربونها من النبات وينكرون ذبح الحيوان . وهم جماعة يغلب عليها النسك والتقشّف يعملون بالفلاحة والصناعة ويرون التجارة رجسًا لا يليق بهم وأكثر منها رجسًا الحرب والقتال إلا دفاعًا عن أنفسهم فحرموا صناعة الأسلحة وحملها وهم يحرمون الرقّ ولا يقبلون سيادة أو رئاسة ويؤمنون بالبعث والخلاص الروحى على يد المسيح المخلّص الذى يأتى ليهديهم إلى حياة الصلاح والاستقامة ، والمادة عندهم مصدر شرٍّ والمسرة هى مسرة الروح لا يرقى إليها الإنسان بغير العبادة والرياضة والنسك ، ورائدهم فى تعاليمهم هو النبى عاموس الذى كان يبشر بأن التقرب إلى الله بالعدل والرحمة خير من التقرب إليه بالنذور والقرابين .

وطائفة رابعة هى الطائفة السامرية ويقال إنهم خليط من بقايا يهود السامرة ومن نزح إليها من الأشوريين ، وقد أنكر عليهم يهود أورشليم بعد عودتهم من السبى البابلى عاداتهم الغريبة فاتهموهم بالوثنية وحرموا عليهم مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد ، فعمدوا هم بدورهم إلى بناء هيكل لهم فى جرزيم ينافس هيكل أورشليم ، وأخذوا يدعون إليه ويحصرون القداسة فيه ، وبقى هيكل جرزيم منافسًا خطيرًا لهيكل أورشليم قرابة مائتى عام حتى هدمه كبير كهان هيكل أورشليم « حناهير كانوس » قبل الميلاد بمائة عام ولكنهم أعادوا بناءه وظلّ قائماً حوالى خمسة قرون بعد الميلاد ، حين ثارت السامرة على الحكم الرومانى فعمد الامبراطور فسباسيان إلى هدم مدينتهم وهيكلهم وأقام على أنقاضها مدينة « نيوبوليس » أو نابلس الحالية . وينكر السامريون الخلاص على يدى

ملك من بيت داود ويقولون بالخلاص الروحى حيث يأتى على قدر وميعاد .

وبين هؤلاء وأولئك من تلك الطوائف والنحل اعتزل أناس بأنفسهم لا يتبعون طائفة ولا يدينون بنحلة بل يعبدون الله كما تهديهم عقيدتهم نسكًا ورهبانية يتزكّون بالتقشّف والعبادة ويكثرون من التطهر بالماء ومن هؤلاء المعتزلة يوحنا المعمدان أو يوحنا المغتسل .

وأضعف انقسام اليهود إلى طوائف ونحل من شأن الهيكل وسلطان الكهان ، وعلا تبعًا لذلك شأن المعبد وإن لم يحتلّ المعبد حتى ذلك الوقت تلك المكانة التى قدّر له أن يحتلّها فيما بعد ، بعد زوال الهيكل ، حين أصبح المعبد وحده مكان التجمع لليهود فى كلّ قطر من أقطار العالم التى حلّوا بها . ولكن بقى للهيكل مكانته السياسية وبقى للكهان سلطانهم الزمنى وهيبتهم الدينية حتى زاد عدد الكهان على حاجة الطقوس الدينية وخدمة الهيكل فقد حصر موسى الكهانة فى بيت هارون فلما تكاثر أبناء هارون وفاضوا على حاجة الهيكل قسم العمل بينهم حتى لا يحرم منهم أحد من خدمة الهيكل كما قسمت عليهم النذور والهبات التى حرم منها الكتبة أو فقهاء الدين وهم جماعة من الفريسيين ورد ذكرهم كثيرًا على لسان المسيح تفقهوا فى الدين واشتغلوا بتدوين الأسفار ، فلما تقادم الزمن بالكهان غدت كثرة منهم لا تعمل فى الهيكل ولكنها تتمتع بالتكريس الكهنوتى بينما لا يتمتع به أولئك الكتبة المتفقهون فى الدين ، فأقبل اليهود عليهم للفتيا فى أمور دينهم وأهملوا الكهان وغدت المراسم الدينية بمرور الزمن غير مرتبطة بالهيكل ولا بالكهان الوراثيين .

ولما هدم الهيكل الثانى وتشتت اليهود فى كافة أرجاء الأرض لم يعد هناك غير المعبد الذى يقيمونه فى كلّ مكان يحلّون به ، سواء فى السر

أو فى العلن ، مكانًا للتجمع والعبادة ، وغدا الفقيه الدينى أو الحاخام زعيما دينيا وقوميا لليهود بدل الكاهن الأكبر ذى الوراثة والرسامة .

وقد ينقض ذلك ما يقال عن التآلف الفكرى لليهود ، إلّا أن اليهود مهما اختلفوا ومزقتهم الفرقة لا يختلفون فيما بينهم قبل غيرهم بل يتجمعون ويبدو تآلفهم كأقوى ما يكون ، فاليهودى أينما ارتحل يجد فى المجتمعات اليهودية المنتشرة فى شتى بقاع العالم ردفًا وسندًا ، وفى ارتحاله لا ينسى أورشليم فهى أم الحواضر عنده كما يقول فيلون فيلسوف الإسكندرية اليهودى .

فالتآلف الفكرى لليهود لم يكن غير بذر عقيم أخصب فى ظلّ السبى البابلى ورواه الحنين فازدهر ولم يذبل بعد ذلك أبدًا . كان بذرًا عقيمًا يوم انقسمت مملكة سليمان على نفسها بعد وفاته وغدا كل قسم من قسميها فى فرقة لا يسودها الوفاق ، لا يخرج من ثورة داخلية حتى يقع فى حرب أهلية ، كان بذرًا عقيمًا يوم تمردوا على أنبيائهم ويوم هجروا شريعتهم إلى الشرائع الوثنية الغالبة حولهم .

فلما عادوا من الأسر وبنو الهيكل من جديد كان بناء الهيكل مظهرًا بارزًا لفكرة ائتلفت عليها قلوبهم ولكن سرعان ما عاد الانقسام إلى صفوفهم حين منعوا يهود السامرة من بنائه معهم فأقام أهل السامرة هيكلهم فى جرزيم ، ولكن طوائفهم الأخرى بقيت تلوذ بهيكل أورشليم وترى فيه قدس أقداسها وإن اتخذت أحيانًا من المعبد عوضًا عن الهيكل فى ممارسة العبادات والطقوس .

وغدت التوراة قانون الحياة لدى اليهود جميعًا عندما دعا الكاتب عزرا يهود أورشليم عام ٤٤٥ ق . م . إلى اجتماع عام ليقرأ عليهم « سفر

شريعة موسى » ، وظلّ سبعة أيام مع اللاويين يقرؤها لهم ، فلما فرغوا من قراءتها ، جعل الكهان والزعماء والشعب بينهم موثقا ألّا يخرجوا على طاعتها بعد ذلك وإلى أبد الآبدين ، وبقيت دستور اليهود منذ تلك الأيام النكدة كما يسميها « ول ديورانت » حتى اليوم تقيدهم إليها وتربطهم بها خلال تيههم الطويل عبر الأجيال والقرون .

وكان إبرام هذا الميثاق الذى دعا إليه عزرا الخطوة التالية فى أهميتها لبناء الكيان اليهودى بعد جمع التوراة وتدوين أسفارها ، فإن التاريخ اليهودى يبدو خلوًا من كلّ ما يحفز النزعة القومية إلى التميز والظهور ، فلم يكونوا دائمًا غير شعب صغير تحكمه حصافة الكاهن أحيانا وتقوده مطامع الملك أحايين أخرى ، يتجمع حول الهيكل وينصت إلى نبوءة النبى ، ولكنه ما لبث أن غدا شعبًا بلا ملك وبلا هيكل ولم تبق له غير التوراة يستلهمها كيانه وأمله فى البقاء ، وغير النبى الذى يلهب وجدانه الدينى والعنصرى ، فلما عاد من الأسر ، عاد شعباً آخر ، فإن كثيرًا منهم طابت لهم الحياة فى بابل واستهوتهم الحضارة البابلية ولم يعد غير قلّة من الخلصاء الذين هفت قلوبهم إلى أورشليم ، والفقراء الذين رأوا فى العودة أملاً فى حياة جديدة ، ولكنهم ما لبثوا حتى أدركوا أن الأمل فى مملكة داود قد خبا إلى الأبد فلم تكن لهم غير أورشليم وما حواليها من أرضها يحكمونها تابعين لإمبراطورية فارس ويمنعون من بناء أسوارها حتى أذن إمبراطور الفرس بذلك تكريمًا منه لساقيه اليهوذى النبى « نحميا » ولم يعد لهم من أمل إلّا فى الهيكل والتوراة فالتفوا حولها وائتلفت عليهما قلوبهم .

وخطا عزرا خطوةً أخرى لتوطيد الكيان اليهودى بتكوين المجمع المقدس المعروف « بالسنهدرين » وإن أرجعه بعض المؤرخين إلى ما قبل ذلك حين أمر موسى أن يكل أمر الشعب الإسرائيلى إلى واحد وسبعين

رجلًا من شيوخهم يشاركونه فى تسيير أمورهم .

ويتكوّن السنهدرين أو المجمع المقدس جريًا على سنة موسى من واحد وسبعين رجلًا من الكهان وذوى الرأى والحصافة برئاسة الكاهن الأكبر ، يشرّعون لليهود ويقضون بينهم ويسيرون أمورهم ، واجتمعت فيه السلطة الدينية والزمنية وغدا الكاهن الأكبر حاكمًا دينيا وزمنيا . وفى هذا المجتمع الجديد أصبح المعبد مصلاهم ومدرستهم ومجمعهم ، ومنذ ذلك الحين علت مكانة المعبد حتى قدر له أن يقوم بالدور الرئيسى فى تآلف اليهود الفكرى . هذا التآلف الذى يدور حول فكرات معينة لا يشذ عنها ولا يتعدّاها لأنها سرت فى وجدان اليهود مسرى العقيدة الثابتة الصماء منذ وجد اليهود على ظهر الأرض ، وهى السر فى بقائهم واستمرارهم بالرغم من تشتتهم وقلة عددهم ، هذه الفكرات الثابتة الصماء هى أنهم شعب الله المختار الذى اصطفاهم وحدهم لعبادته من دون العالمين ، وأن التوراة هى شريعتهم المقدسة قننت لهم أمور دينهم ودنياهم وأنهم وعدوا من لدن الرب بأرض الكنعانيين التى أصبحت تعرف بفلسطين منذ الحكم الرومانى ، وأن فلسطين ليست أرض ميعادهم فحسب بل تمتد لتشمل كل الهلال الخصيب من « نهر مصر إلى نهر الكبير نهر الفرات » وليست فلسطين غير مركز التجمع والوثوب . وأن هيكلهم وقدس أقداسهم فى أورشليم دون سواها . وفيما عدا هذه الفكرات فإنهم لا يتفقون على شىء مما أوقع كثيرًا من المؤرخين فى تفسيرات خاطئة أو تناقض فى إبراز الصورة التى يرسمونها لهم ، فابن خلدون يرى أن « وسواس » الحسب والنسب قد بقى فى اليهود دون « العصبية » فضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء فى الأرض وانفردوا بالاستعباد للكفر آلافًا من السنين . وما زال هذا الوسواس مصاحبًا لهم فتجدهم يقولون : هذا هارونى . هذا من نسل يوشع . هذا من عقب كالب . هذا من سبط يهوذا . مع ذهاب العصبية

ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة[1].

ويقابل العصبية كما يعنيها ابن خلدون القومية والتماسك القومى فى وقتنا هذا فلم يعد لعصبية الأسرة والقبيلة والجماعة ما كان لها فى الزمن الماضى بل غدت العصبية عصبية الأمة والدولة القومية ، وفقد اليهود تماسكهم الاجتماعى والقومى منذ آلاف السنين ضربت عليهم فيها الذلّة والمسكنة كما يقول ابن خلدون حقا ولم يعد لهم كيان الأمة وعصبيتها ، ولكن بقى لهم تماسكهم الفكرى وهو سرّ بقائهم واستمرارهم وصمودهم للفناء . فلولا هذا التماسك أو التآلف الفكرى لذوت العقيدة اليهودية بين غيرها من العقائد الوثنية التى سادت إلى جوارها طويلاً قبل بعث المسيحية والإسلام فإن بعثهما قوى جذورها ، فقد بعثت المسيحية والإسلام مصدقين لشريعة موسى وإبراهيم ، ولولا هذا التآلف الفكرى لفنى اليهود فى الشعوب التى حلوا بينها وفيها من ساطهم بعذابه ، ومن بينها الشعوب المسيحية التى نقمت عليهم تعذيبهم المسيح وقتله .

فوسواس الحسب وقد بقى فى اليهود دون العصبية كان أحد الفكرات الهامة التى أبقت عليهم بعد أن ائتلفت قلوبهم عليها مالم تكن تستطيعه العصبية فيهم أو فى غيرهم .

وهذا التآلف الفكرى هو الذى حملهم على العزلة فى أماكن خاصّة من المدن التى يعيشون فيها وليس صحيحاً أن الاضطهاد هو الذى حملهم عليها ، ففى أنحاء العالم الإسلامى حيث عاش اليهود فى سلام وأمن ، اتخذوا لهم أيضًا أحياء خاصة لا يختلطون فيها بغيرهم . وفى هذه العزلة صان اليهود عصبيتهم ولم يفقدوها كما يقول ابن خلدون وإن اختفت فى غلالة من السرية والكتمان يسترها استخذاؤهم وقبولهم للذل ، وإن بقيت

---

(١) مقدمة ابن خلدون الفصل الثالث عشر .

مجردةً من القوّة التى يرى ابن خلدون أنها سمة العصبية البارزة . فالتآلف الفكرى هو بعض ما يصون العصبية بل لعله أقواها ، وظل هذا التآلف الفكرى يلمّ اليهود فى نطاقه حتى خلقت منه الصهيونية نزعةً قوميةً حادةً ودعوةً سياسية منظمة رغم ما يشوبها من نقائض الجمع بين الدين والعنصرية فى الدولة القومية .

ووقع « والتر باجت » الإنجليزى الذى عاش فى القرن التاسع عشر فيما وقع فيه ابن خلدون العربى الذى عاش فى القرن الرابع عشر حين أخذ عليهم قصورهم الحربى وأن تطورهم الحضارى ظل خلواً من أية نزعة عسكرية تصون الدولة وتحميها ، وغاب عنه أن تنظيم المجتمع الإسرائيلى فى بدايته كان تنظيماً عسكرياً حين قسم موسى أسباطهم فى برية سيناء إلى ما يشبه الكتائب والفرق من تنظيمات الجيوش المعروفة ، وقادهم يشوع ابن نون بهذا التنظيم إلى أرض كنعان ، واشتبك بنو إسرائيل فى حروب عديدة مع جيرانهم حتى حطّم الأشوريون والبابليون قوّتهم العسكرية ، وبعد عودتهم من المنفى كانت عودتهم أشبه بزحف عسكرى منظم من بابل إلى فلسطين ، وخاضوا بعدها عدة حروب ضد جيرانهم ومنافسيهم بل وضد الحكم الإغريقى فى سوريا وضدّ روما حتى أمحت قوتهم ودمرت مدينتهم وخرب هيكلهم وتفرق شملهم على يد الرومان عام ٧٠ م . بعد كثير من الثورات التى قاموا بها ضد الحكم الرومانى .

فالمجتمع اليهودى لم يكن ينقصه التنظيم العسكرى ولم تعوزه النزعة الحربية ، فالشريعة الموسوية تحض على الحرب والقتال بل إن « يهوه » إلههم قد دعى فى كثير من أسفار التوراة « برب الجنود » وفى ذلك يقول موسى إن « الرب رجل حرب » ويقول عنه داود إنه هو الذى يعلم يديه القتال ، بل إن « يهوه » ليبدو فى كثير من الأحيان متعطشًا للدماء محبا

للفتح والاستعمار «يطرد الحويين والكنعانيين والحيثيين» ولا يقطع مع الأعداء عهدًا بل ينال ما يشتهى بحدّ السيف ويستبقيه بحدّ السيف ، وهو إله معجب بنفسه إعجاب الجندى بنفسه يتقبل المدح والثناء ويشتهيه كما يقول «ول ديورانت» يتمجد بإغراق المصريين فى البحر ، وينتشى برؤية الدماء فيدفع شعبه إلى القتل وسفك الدماء وإفناء أعدائه جميعًا ، وهو إله قاس يتفقد ذنوب الآباء فى الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع ، متردد فيما يبرم يندم على ما انتوى من فتك ببنى إسرائيل حين يراجعه موسى فى ذلك ، فيه من غرائز السلب والنهب ما فى الجندى الأصيل حين يوعز إلى بنى إسرائيل أن يسلبوا المصريين «أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا» ويهربوا بها فى خروجهم ، وفيه صفات الجاسوس الماكر حين يطلب من بنى إسرائيل أن يجعلوا على دورهم علامة من دم الكباش المضحاة حتى يميز بينهم وبين المصريين فلا يهلكهم معهم ، وفيه أيضا ختل وخداع حين يتآمر مع يعقوب على خداع صهره لابان ، وهو إله قدح وسباب لا يتورّع أن ينعت شعبه بكلّ قبيحة ويصبّ عليه كلّ لعنة ، وتلك جميعًا هى صفات اليهود صوروا الرب على شاكلتها واتخذوا منها لأنفسهم بعد ذلك نموذجًا ومثالاً .

فالنزعة الحربية والتنظيم العسكرى للمجتمع متأصلين فى اليهود ولكن التنظيم العسكرى لا يكون إلاّ فى مجتمعات موحدة يضمها وطن واحد ، فلما تفرقوا وتشتت شملهم غدا عسيرًا عليهم فى بلاد ينتمون إليها أن يقيموا مثل هذه التنظيمات العسكرية ، فلم يكن فناء دولتهم إذن بسبب قصورهم الحربى ولكنه جاء نتيجة لتفوق أعدائهم عليهم فى العدة والعدد ، وسيبقى هذا التفوق قائماً ما دام أعداؤهم يفوقونهم فى العدد والعدة بل والشجاعة أيضًا ، فاليهود رغم نزعتهم الحربية التى حضتهم شريعتهم عليها تنقصهم شجاعة المقاتل وأصالة الجندى ونبل الفارس فلا يقاتلون

إلّا من وراء ستار ولا ينتصرون إلّا غدرًا .

ولو كان لليهود من مزايا الأمم الحربية ما يفوق مزايا التآلف الفكرى الذى عرف عنهم لكان مصيرهم مصير الأمم التى تميزت بالنزعة العسكرية واختفت من التاريخ بضعف هذه النزعة العسكرية أو زوالها ، فبقاء أمة من الأمم ليس رهنًا بتفوقها العسكرى أو تميزها الحضارى وإنما هو رهن بالقدرة على التغير والمحافظة فى الوقت ذاته ، وكان ثمرة التآلف الفكرى لليهود أنه غرس فيهم هذه القدرة ونمّاها فلم يجمدوا أمام دواعى التطور بل استجابوا إليها وكيفوها وفق عقائدهم ومثلهم الاجتماعية والفكرية فصانوا أنفسهم من الفناء الذى يخترم الأمم التى لا تملك القدرة على التغير والمحافظة فى آن واحد .

وقوّت العزلة التى فرضها اليهود على أنفسهم فى كل بلد يحلون به من هذه القدرة على التغير والمحافظة فهم فى عزلتهم يصونون تراثهم ومأثوراتهم وتقاليدهم مما ينمى القدرة على المحافظة ، ولكن العزلة اليهودية كانت بدورها ذات طابع فريد ، فهى عزلة فيما يتصل بأمورهم الخاصة ، ولكنهم فيما يتصل بالحياة عامة فى المجتمع الذى يعيشون فيه يندمجون فيها اندماجًا ظاهريًا فهم كما يقول فيلون يتفرقون لطلب الرزق فى أغنى البلاد من أوربا وآسيا ، وطلب الرزق يتطلب الاستجابة إلى قوانين المجتمع الذى يعيشون فيه ومجاراة أهله دون الأخذ بمأثوراته وتقاليده التى يحرصون على البعد عنها حتى وإن حملتهم الظروف على التظاهر بها . وهم حين يعزلون أنفسهم عن المجتمع باختيارهم يتغلغلون فيه بحوانيتهم ودورهم التجارية ومصارفهم ومراكز المساومة والسمسرة والصيرفة فهم لا يحترفون غير أيسر المهن وأجزلها ربحًا ويحاولون فى كلّ بلد أن يسيطروا على شئونه التجارية والمالية . وهم بعضهم لبعض رفد وسند ، ينزح اليهودى إلى بلد آخر فلا يحس وحشة الغربة لأنه يجد فى

كلّ بلد مجتمعًا يهوديًّا يلمّه ويأويه ، وهو فى الوقت ذاته لا يربطه بالبلد الذى نزح منه رابطة من ولاء أو حب فكل ولائه وحبه لأورشليم حاضرته الكبرى كما يقول فيلون فيلسوف الإسكندرية اليهودى فى القرن الأوّل للميلاد . وتلك مظاهر التآلف الفكرى لليهود فيما يتصل بحياتهم مع الآخرين .

ولكن التآلف الفكرى لأمة مشتّتة لا يمكن أن يكون نواةً لإنشاء دولة وإن كان من الممكن - كما برهنت الصهيونية - أن يكون نواةً لدعوة قومية ترمى إلى إنشاء دولة ولكنها لا تتخذ من هذا التآلف الفكرى قوّةً لها ، بل تعمد إلى أساليب السياسة والتنظيم السياسى أداةً لإنشاء الدولة ، وهذا ما صنعته الصهيونية . فالصهيونية حركة سياسية تستغل فكرةً دينية مبهمةً ونزعة عنصرية حادّة وآمالا خابية فى وطن لم يكن خالصًا لهم فى يوم من الأيام .

فالدولة اليهودية لم تقم فى أى يوم من الأيام إلّا إذا حسبنا هذا الحكم الأبوى لبنى إسرائيل وامتلاك بعض فلسطين دولة من الدول ، فلم يكن حكام اليهود - إذا افترضنا أن لهم حكومة من أى نوع كما يقول ويلز - غير قضاة من الكهنة يختارهم كبار الشعب ، ثم عمدوا فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد إلى اختيار ملك هو شاءول ليقودهم فى الحرب ولكنه هلك تحت وابل من سهام الفلسطينيين فى معركة جبل جلبوع وأخذت دروعه إلى معبد عشتروت ودقّ جسمه بالمسامير على أسوار بيت شان . وليس فى تاريخ اليهود من مقومات الدولة ما يصح أن نقف عنده إلّا حكم داود وابنه وخليفته سليمان ففى حكمهما أشرقت فترة الرخاء الوحيدة التى قدر لبنى إسرائيل أن يعرفوها على مرّ العصور كلها ، ويرجع الفضل فى هذا الرخاء إلى محالفة أبرمها حيرام ملك صور مع داود

ومن بعده سليمان ، وكان حيرام يبغى أن يشقّ طريقًا آمنًا للتجارة الفينيقية عبر التلال الداخلية التى يسيطر عليها بنو إسرائيل إلى خليج العقبة حيث أنشأ سليمان ميناء عصيون جابر . وبرعاية حيرام بنيت أسوار أورشليم وهيكلها وقصرها ، وعادت التجارة على سليمان بأرباح وفيرة وبلغ من اليسار والأبهة مالم يره شعبه من قبل ومن بعد حتى سمح فرعون مصر أن يزوجه ابنته ، بيد أنه لا يصح أن يغيب عن أذهاننا التقديرات النسبية للأمور ، فلم يكن سليمان غير ملك صغير يحكم شعبًا صغيرًا إذا قيس إلى غيره من الشعوب المجاورة كالمصريين والبابليين والأشوريين ، وكانت دولته من الهزال وسرعة الزوال بحيث لم تنقض بضعة أعوام على وفاته حتى اجتاحها شيشنق أوّل فراعنة الأسرة الثانية والعشرين ودخل أورشليم واستولى على كنوزها .

ويقف كثير من المؤرخين موقف الريبة من قصة مجد سليمان التى تقصها أسفار الملوك ويقولون أن الكبرياء القومى لليهود فى عهود متأخرة هو الذى حملهم على الإضافة إليها وتهويلها ، هذا عدا أنه أبهظ كاهل الشعب بالسخرة والضرائب كما تقول الأسفار مما عجل بانهيار المملكة وانقسامها إلى مملكتين لا يعدوان كونهما ولايتين صغيرتين تعركهما مصر من الجنوب وسوريا وبابل من الشمال والشرق ، يقول عنها ويلز أن تاريخهما هو تاريخ ملوك من الهمج يحكمون شعبًا من الهمج ، لا تخلصان من نكبة إلّا لتحل بهما نكبة أقسى حتى قضى عليهما واحدة بعد الأخرى تحت سنابك المغيرين .

ولما عادت القلّة التى ارتضت العودة من بابل لم تستطع أن تقيم دولةً بالمعنى المعروف للدولة ، وخضعوا لنوع من الحكم الأبوى هو حكم العشيرة تحت سيادة فارس أو مصر أو روما ، وكانوا دائمًا مصدر قلق

لجيرانهم وللدول التى تحكمهم حتى سيّرت عليهم روما جحافلها فدمرت أورشليم وأضرمت النار فى الهيكل وقتلت ونهبت وبدأ اليهود عهد تيههم الطويل . ولم يعد لليهود غير التوراة وغير المعبد الذى يقيمونه فى كلّ مكان يحلون به .

فاليهودية دين وليست قومية واليهود طائفة دينية ككل الطوائف الدينية المنتشرة فى العالم والتى تتقسمها أوطان وقوميات مختلفة ، أما الصهيونية فحركة جديدة كلّ الجدة على اليهود لا تمتّ إلى ماضيهم بصلة من الصلات أو آصرة من الأواصر ، ولكنها حركة تنبع من صميم الفكر اليهودى مما حمل كثيرًا من الباحثين على تقصيها فى تاريخ اليهود القديم وإرجاعها إلى عهودهم السابقة فمنهم من يرجعها إلى انهيار مملكة داود والأمل فى عودتها ومنهم من يعود بها إلى السبى البابلى والحنين إلى أورشليم أو إلى أبعد من ذلك ، إلى وعود الرب لإبراهيم أو أقرب من ذلك ، إلى ما تركه الاضطهاد فى نفوس اليهود المشتتين من رغبة التجمع فى وطن ما أو فى فلسطين بالذات . ومن هؤلاء الباحثين – كالعقاد مفكر العرب الحديث – من يرى أنها «حركة سياسية تابعة لقيام الدولة وسقوطها فى بيت داود» وأن اليهود حين حملوا إلى الأسر «أصبح الحنين إلى صهيون رمزًا للحنين إلى عودة المملكة الغابرة وتحوّلت الوعود الإلٰهية فى كتبهم تحوّلًا جديدًا مع مصالح السياسة ، فانحصرت فى ذرية داود – عليه السلام – ليخرج منها غير ذى الذرية من اليهود[1] . فالصهيونية فى رأى العقاد حركة سياسية ترجع إلى سقوط مملكة داود والسبى البابلى .

والواقع أن الصهيونية حركة سياسية ، ولكنها حركة سياسية جديدة من طراز الحركات المذهبية والسياسية فى العصر الحديث ولا تمتّ بأية صلة

(١) عباس محمود العقاد : الصهيونية العالمية ص ١١ .

من الصلات كما قلنا إلى ماضى اليهود أو تاريخهم ولا إلى قيام مملكة داود أو سقوطها ، ولا إلى العودة من الأسر أو التشتت الأخير . هى حركة سياسية تنبع من واقع التطور الفكرى والسياسى للحضارة الحديثة ، ولكنها تستمدّ أصولها من الفكر اليهودى الذى ظلّ حيًّا فى أعقابهم حتى الجيل الحاضر ، والذى يأتلف حول مثل التوراة وما جدّ من شرائع التلمود كما بينا من قبل .

والصهيونية نسبة إلى صهيون وهو حصن أورشليم كان فى حوزة اليبوسيين واستولى عليه داود « وأخذ داود حصن صهيون . هى مدينة داود .... وأقام داود فى الحصن وسماه مدينة داود[1] » ، وعمّت الكلمة بعد ذلك حتى أصبحت رمزًا لملك إسرائيل ونسبة لهم فيقال أبناء صهيون كما يقال أبناء إسرائيل ووردت بهذا المعنى فى الأسفار الأخيرة من التوراة . وليس لها صفة من صفات القداسة فقد اختار عليها داود « بيت داود » بدلاً من حصن صهيون ، وفى أشعياء أن الرب يسميها باسم جديد « من أجل صهيون لا أسكت ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح يتقد ، فترى الأمم برك ، وكل الملوك مجدك وتسمين باسم جديد يعينه فم الرب[2] » .

واختارتها الحركة الصهيونية علماً عليها ومسمى لها لأنها أيسر الأسماء شيوعًا على الألسن من كل الأسماء الأخرى التى تواترت فى تاريخ بنى إسرائيل ، ولأنها فى الوقت ذاته ترمز إلى كل تراث إسرائيل من العقائد الدينية والأفكار السياسية الغابرة ، التى عبرنا عنها بالفكر اليهودى .

---

(١) صموئيل الثانى ٥ : ٧ - ١٠ .
(٢) أشعياء ٦٢ : ١ .

ولكن الصهيونية بالرغم من أنها حركة سياسية جديدة كل الجدة إلاّ أنها تستمد أصولها كما قلنا من الفكر اليهودى المتجدد كما تستمدّ حيويتها من ائتلاف هذا الفكر حول عقائد دينية ثابتة لا تتغير ولكنها مبهمة يحوطها الغموض ، والحركة الصهيونية هى التى أخرجتها من حيز الإبهام والغموض كما يقول الكاتب الصهيونى « جوزيف هيلر » إلى حيز المبادئ الواضحة والأغراض المحددة ، فغدت بذلك حركةً سياسيةً واضحة المعالم تقوم كغيرها من الحركات السياسية أو المذهبية على أيدلوجية ثابتة ، هى أن اليهود أمة كغيرهم من الأمم ولكل أمة وطن ما عداهم ، وبسبب هذا يعانون ما يعانونه من اضطهاد ، فلو كان لهم وطن يلوذون به وينتمون إليه لما وقع عليهم اضطهاد ولما أحسوا بالغربة فى كلّ مكان يحلّون به .

وليس للفكر اليهودى القديم أثر فى هذا الاتجاه القومى الجديد بل هو نتيجة للنزعة القومية الحادّة التى عمّت أوربا وألهبتها بفيض من العواطف الوطنية فى القرن التاسع عشر ، ففى ذلك الوقت سارت دعوة الإخاء والمساواة جنبًا إلى جنب مع الدعوة إلى الحرية ، حرية المواطن فى وطنه وحرية الوطن من أى حكم أو سيطرة خارجية . وأفاد اليهود منها معاً فتمتعوا بالمساواة مع غيرهم من المواطنين ومن ثم تطلعوا إلى وطن يجمعهم من غربة وشتات . إلاّ أن فكرة الوطن القومى لليهود جاءت متأخرة بعض الشىء وأثارت كثيرًا من الجدل بين اليهود أنفسهم قبل أن يستقروا على اختيار فلسطين وطنًا قوميًا .

واتجه اليهود فى البداية إلى الإفادة من ذلك وقام « موسى مندلسون » فى ألمانيا يدعو قومه إلى الخروج من عزلتهم والاندماج مع جيرانهم من المسيحيين والأخذ بعاداتهم وثقافتهم وسرعان ما امتدت دعوته إلى بقاع أخرى من أوربا ، وبدت حركات شبيهة تدور جميعًا حول ضرورة خروج

اليهود من عزلتهم التقليدية ، وظهرت تفسيرات عديدة لأرض الميعاد ودعا « ازهام جيجر » و « صموئيل هولديم » إلى العدول عن فكرة المسيح المنتظر من بيت داود لخلاص بنى إسرائيل والعودة بهم إلى أورشليم وحذف ما يشير إلى هذه العقيدة فى التراتيل والصلوات ، وكتب « موسى هس[1] » كتابًا بعنوان « روما وأورشليم » يقول فيه إن أورشليم لليهودية مركز دينى وقومى . وحمل فيه على الحاخامات الذين يضحون بفكرة القومية على مذبح الفكرة الدينية الخالصة ، وانتهى فيه إلى أن فلسطين هى الحلّ الوحيد للمشكلة اليهودية .

وكان هذا قمينًا بتخفيف حدّة العداء لليهود وخاصّة بعد أن فترت النعرة الدينية ولم يعد لها من الحدّة ما كان لها من العصور الوسطى ، إلّا أن الاندفاع نحو فكرة الوطن القومى وما يصحبها من شك فى ولائهم للأوطان التى ينتسبون إليها أبقى جذوة الشك فى نواياهم حيّة .

والدعوة إلى الوطن القومى كالصهيونية دعوة جديدة ولكنها متأخرة نسبيا عن الدعوة إلى الخروج من العزلة ومتقدمة على الحركة الصهيونية وإن كنا نعتبرها بحق أساس الحركة الصهيونية .

وظهرت دعوة الوطن القومى فى البداية غامضة مبهمةً وثار حولها كثير من الجدل بين اليهود ، فمنهم من ارتضاه فى فلسطين أو فى أى مكان آخر ، ومنهم من عارضها أصلًا مع الاعتراف بأورشليم مركزًا روحيًّا لليهود ، ومنهم من رضى بحياته فى ظلّ المساواة الجديدة خوفًا من أن يفقد اليهود ما نالوا من امتيازات لم تكن لهم قبل أن ينالوا حق المساواة مع غيرهم من المواطنين .

---

(١) Moses Hess : Rome and Jerusalem (1862).

إلّا أن دعوة الوطن القومى ما كانت لتخفت فى وقت كانت الثورات القومية تلهب كل أوربا ولاسيما الاقطار التى تتركز فيها أغلبية اليهود ، وانتهى الجدل بينهم إلى الاتفاق على ضرورة الوطن القومى سواء فى فلسطين أو فى غير فلسطين . وبدت صعوبة تحقيق الفكرة فى فلسطين حين عارضتها الدولة العثمانية منذ البداية ، وفى كافة محاولاتها منذ حاول موسى منتفيورى إنشاء مستعمرات زراعية لليهود فى فلسطين ، فراودتهم فكرة إنشاء الوطن القومى فى أوغندا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو الأرجنتين أو أية بقعة ترتضيها الدول المناصرة لهم حتى أن تيودور هرزل الذى يعتبر بحق رائد الصهيونية فكر فى اختيار مكان آخر غير فلسطين واختار الأرجنتين .

وفى مؤتمر بال عام ١٨٩٧ ، وهو أوّل مؤتمر يجمع ممثلى اليهود فى العالم منذ ثمانية عشر قرنًا ، وضعت أسس الحركة الصهيونية ، وأصبح صهيونيا كل من يعتنق المبادئ التى وضعها مؤتمر بال ويقوم بدفع اشتراك المؤتمر السنوى وهو ما يوازى خمسة قروش .

وتتلخص مبادئ مؤتمر بال فى عبارة واحدة هى إنشاء دولة يهودية فى فلسطين ، وقد انتهت مداولات المؤتمر الذى ظلّ منعقدًا مدة ثلاثة أيام بنشيد الأمل الذى أصبح فيما بعد النشيد الوطنى اليهودى .

وهكذا تبلورت فكرة الدولة اليهودية وانتقل اليهود من الآمال الدينية المبهمة إلى حقائق السياسة المجردة وإن استمدّوا من تراثهم الدينى القديم كلّ ما يلهب شعورهم القومى من التذكير بأرض الميعاد ووعود الرب ومملكة داود مما ائتلفت عليه قلوبهم من قبل ، ولم يخب من وجدانهم أبدًا طوال حياتهم العسرة النكدة .